٣ـ مِكْنَاس

تتوسط مكناس سهلاً فسيحاً، وتعلو في وسطه تلة جميلة، فتشرف نظراً دون أن تسرف علواً، وتظلها أشجارها دون ان تخفي أسرارها. وقد تحدر إلينا وصف لطيف من قلم لسان الدين ابن الخطيب صاحب الوزارتين قال:

«وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد، رافلة في حلة الدروح، مبتسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المرأى، قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى، قيد البصر، وفدلكة الحسن، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين ان تخلفه حسناً ووضعاً. من بلد دارت به المجاشر المغلة، والتفت بسوره الزياتين المفيدة. وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف رحب ساحة، والتفاف شجرة، ونباهة بنية، واشراف ربوة. ومثلت بازائها الزاوية القدمى المعدة للوارد، ذات البركة النامية، والمأذنة السامية، والمرافق المتيسرة. يصاقبها الخان البديع المنصب، الحسن الغلق، الغاص بالسابلة والجوّابة في الارض يبتغون من فضل الله. تقابلها غرباً الزاوية الحديثة، المربية برونق الشبيبة، ومزية الجدة والانفساخ وتفنن الاحتفال»[١].

ومكناس، او مكناسة الزيتون، كانت حيث هي قبل أن يصل العرب والاسلام المغرب. فقد قال صاحب الاستقصا: «كانت مدينة مكناسة الزيتون من الامصار القديمة بأرض المغرب بناها البربر قبل الاسلام، ولما جاءت دولة الموحدين حاصروا مكناسة سبع سنين ثم افتتحوها عنوة أواسط المائة السادسة وخربوها، ثم بنوا مكناسة الجديدة المسماة بتاكرارت، ومعناها: المحلة، واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا والربط، وكانت يومئذ هي كرسي الوزارة، كما ان حضرة فاس الجديد هي كرسي الإمارة»[٢].

ونالت مكناس عناية كبيرة على أيدي بني مرين. فما كان لهم ان يهتموا بفاس ويهملوا مكناس، وللمدينتين حق الجوار، فما يفصل بينهما سوى مرحلتين بلغة الأمس، وساعة بلغة اليوم. وقد خلّف لنا ابن غازي في الروض الهتون، صورة مقتضبة لما كانت عليه مكناس أيام بني مرين. قال:

«ثم ازداد أمر الموحدين ضعفاً، وعلا أمر بني مرين فعادت إليهم مدينة مكناسة ... ثم بعد ذلك استخلص بنو مرين بلاد المغرب كلها واستقلّوا بالامر وصلحت أحوال مدينة مكناسة، ولم تعد العمارة بعد ذلك والله أعلم لحوائرها، بل صارت كلها جنّات،

وغرس الناس على ردوماتها؛ وقد بقي من ذلك لهذا العهد صومعة بني موسى وصومعة بني زياد ومسجد السور القديم وصومعته وحمّام بني مروان ... وذكر ابن خلدون ان السلطان أبا يوسف المريني لما فرغ من بناء البلد الجديد المسمى بفاس الجديد أمر ببناء قصبة مكناسة وبنى بها السلطان أبي يوسف أيضاً مدرسة الشهود التي بأعلى سماطهم هنالك، ويقال لها مدرسة القاضي لانها كان يدرّس بها القاضي أبو علي الحسن بن عطية الونشريسي ثم نوّه بها أبو الحسن المريني المسمى بأبي الحسنات الكثير الآثار بالمغرب الاقصى والاوسط والاندلس فبنى بها مرافق كثيرة كزاوية القورجة وزاوية باب المشاوريين وغير ذلك من السقايات والقناطر في طرقاتها ونحوها. ومن أجلّ ذلك المدرسة الجديدة وكان قدّم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة أبا محمد عبد الله بن أبي الغمر. فحدثني والدي رحمه الله انه كان يسمع ممن أدرك من الشيوخ أن السلطان أبا الحسن لما أخبر بتمام بنائها جاء إليها ليراها فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها وجيء بالرسوم المتضمنة التنفيذات اللازمة فيها فغرّقها في الصهريج قبل ان يطالع بما فيها وأنشد:

«لا بأس بالغالي إذ قيل حسن ليس لما قرّت به العين ثمن

«ولما ولي بعده ولده ابو عنان نوّه بها أيضاً وتفقّد أحوالها ... ولم يزل أهلها أيام بني مرين في خير وثروة»[٣].

لكن الاهتمام بمكناس بلغ الغاية، ووصل النهاية، أيام المولى اسماعيل الذي حكم المغرب أواخر القرن الحادي عشر (السابع عشر) وأوائل القرن الثاني عشر للهجرة. فقد روى المؤرخ أبو القاسم أحمد الزياني في كتاب الترجمان المعرب عن المولى اسماعيل: «واشتغل السلطان ببناء قصوره بمكناسة حيث ألفها وأعجبه هواؤها وكان لا يبغي بها بديلاً. وهدم ما يلي القصبة من الدور وأمر أهلها بحمل أنقاضها. وهدم الجانب الشرقي من المدينة وزاده في القصبة القديمة ولم يبق أمامه إلا الفضاء، فجعله كله قصبة، وبنى سور مدينة مكناسة وأفردها عن القصبة. وجلب الصنّاع من آفاق المغرب وحواضره وأطلق أيديهم على البناء فلم يبلغ بذلك غرضه. فوجّه للقبايل يعطون الفعلة، كل قبيلة تعطي عدداً معلوماً في كل شهر. وأسس المسجد الاعظم داخل القصبة بجوار قصر النصر الذي أسّسه أيام أخيه الرشيد ثم أسس الدار الكبرى بجوار ضريح الشيخ المجذوب»[٤].

وانصرف المولى اسماعيل الى حروب يقود جنودها إليها بكلله النصر تلو النصر. فلما فرغ من ذلك، عاد الى مكناس وأقام فيها، على رواية الزياني، «يقف على بناء قصوره بنفسه وكلما أكمل قصراً أسّس آخر. ولما ضاق مسجد القصبة بالناس أسس المسجد الاخضر بالقصبة وجعل بابه للمدينة، وجعل لهذه القصبة عشرين باباً عادية وفوقها بساتين للمدافع والمهارز. وجعل داخل القصبة بركة عظيمة يسير فيها الفلايك

للفرجة وجعل بها هريا للزرع وجعل بجواره سواني للماء في غاية العمق مقبوّة وفوقها سقالة للمدافع. وجعل بها اصطبلاً لخيله وبغاله طوله ثلاثة اميال مسقّف الدايرة بالبرشله، قيل كان به مربط اثني عشر ألفاً من الخيل. ومشقّه هري مقبوّ تحت الارض يكون به الشعير لعلف الخيل. وجعل في وسطه هرياً عظيماً في غاية الضخامة والارتفاع تكون به سروج الخيل واقامتها. وبنى فوقه قصراً سمّاه المنصور فيه عشرون قبة، فيها برج مشرف على بساط مكناسة وجبالها. وغرس بجوار هذا الاصطبل بستاناً على طوله فيه من أنواع الاشجار كل غريب. وبداخل هذه القصبة نحو الخمسين قصراً كل قصر بمسجد، وحمّامه وميضاته ولا يفتقر لغيره. وهذا شيء لم يبرز في دولة عربية ولا عجمية في الجاهلية ولا في الاسلام. وكان عنده بأبواب قصوره على ما ذكروا ألفان وميتان من الخصيان السود»[٥].

وقد كان للعلم في مكناسة دولة. قال ابن الخطيب: «وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت بها الملوك الجلة الهمم وأخذها التنجيد فجاءت فائقة الحسن: ما شئت من أبواب نحاسية وبرك فياضة تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية وفيها خزائن الكتب والجراية الدارّة على العلماء والمتعلمين»[٦].

ولعل من أمتع ما وصلنا مقطوعة شعرية يفاضل فيها سيدي محمد العباس العلوي بين مكناس وغيرها من مدن المغرب، يقول:

«إذا افتخرت فاس بطيب معانيها ... ولطف أهاليها ورقراق واديها
ومراكش الحمرا بطلع نخيلها ... وحسن سجايا أهلها وأغانيها
وثغر رباط الفتح بالأدب الذي ... غدا مفرق العليا يصول بها تيها
فمكناسة الزيتون فاقت بتربة ... وطيب هواء وابتهاج مبانيها
فما مثلها الزهراء في حسن منظر ... ولم لا وسبط المصطفى هو بانيها
إمام همام ساعد السعد سعيه ... فكانت شموس الفضل مشرقة فيها[٧]

«وقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهدناه في آثارهم. بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الاسلام لرجح بها ما بناه السلطان الأعظم المولى اسماعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكه، ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الأمطار والثلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام والهياكل الجسام». قال: «ومن يوم مات المولى اسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك الى وقتنا هذا، وبنيت من أنقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب، وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة، وأما الجدارات فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك

والروم يعجب من عظمته ويقول: ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مال»[٨].

ثم انتقل صاحب البستان الى وصف ما كان خارج مكناس من البساتين فقال: «كان عنده بجنان حمرية مائة ألف قعدة من شجر الزيتون وحبسه كله على الحرمين الشريفين، ومرت عليه بعد وفاته العصور وأيام الفترة والفتن والناس يحتطبونه فلم يظهر فيه أثر من ذلك، ولما بويع السلطان المولى محمد بن عبد الله أحياه وأجرى الماء إليه وأمر بإحصاء ما بقي من شجره فوجدوه ستين ألفاً، فكان رحمه الله بعث بثمن غلته الى الحرمين تنفيذاً لمراد جده وكذا ابنه المولى سليمان رحمه الله»[٩].

وكثيراً ما أوحت مكناس وما إليها من جبال زرهون كثيراً من الشعر. ومن ألطف ذلك قول عبد الرحمن بن زيدان:

بالحسن من مكناسة الزيتون ... قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذي ... يجري بها وسلامة المخزون
سحت عليها كل عين ثرة ... للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين اباطح ... وافتر ثغر الزهر فوق غصون
ولقد كفاها شاهداً مهماً ادعت ... قصب السباق القرب من زرهون
جبل تضاحكت البروق بجوه ... في لوحه والتين والزيتون
حييت من بلد خصيب أرضه ... مثوى أمان او مناخ أمون
وضفت عليك من الاله عناية ... تكسوك ثوبي أمنة وسكون[١٠]

الهوامش

(١) ابن زيدان: اتحاف الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس، الرباط، ١٩٢٩، ج ١، ص ٢٣٣ـ٢٣٤.
(٢) الاستقصا، ج ٧، ص ٤٨.
(٣) نخب تاريخية، ص ٧٦ـ٧٧.
(٤) نفس المكان، ص ١٣.
(٥) نفس المكان، ١٤ـ١٥.
(٦) ابن زيدان: ج ١، ص ٢٣٤.
(٧) ابن زيدان: ج ١، ص ٢٥٠.
(٨) الاستقصا، ج ٧، ص ٥٥ـ٥٦.
(٩) نفس المكان، ج ٧، ص ١٠٢.
(١٠) ابن زيدان: ج ١، ص ٢٣٥.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية